

الطريق

قصة جديدة

بقلم الدكتور سهيل إريسي

هل تراها ستأتي؟ انه يرجو ألا تفعل، حتى لا تنكأ جراحه . لقد التأمّت هذه الجراح منذ اشهر؛ وهو يحسب ان آثارها قد امّحت الآن؛ فينبغي ألا تأتي لمياء، وهو في هذه الحالة من العياء والخور . سيكون مجيئها استغلالاً لضعفه، سيكون هزيمة له .

ومع ذلك، فهو يتساءل: لماذا كانت صورتها في ذهنه قبل ان يحدث ما حدث؟ كانت عينها آخر ما وعى من مرثيات قبل ان تهوي المراوة على رأسه . وكان ذلك أقوى منه؛ لقد أراد ان ينسى حبها، ولا يشك في انه بلغ من ذلك ما يريد، ولكن عينها . . لا، لن ينساها، على الرغم من كل شيء؛ كان لها بريق عذب يتذوقه بعينه، كما يتذوق ظامئاً بشقته جرعة ماء مثلوج؛ بريق يستصفي عينها فتشفتان، ثم إذا هما توشكان، لفرط شفافيتهما، ان تمتلئا كل لحظة بالدموع .

ولكن لماذا؟ لماذا تعود اليه الآن دنيا لمياء بكل اجوائها، بعد ان غارت في نفسه وقلبه؟ سبعة اشهر مضت على آخر لقاء أيقن إثرها انه قد بريء من ذلك الحب الذي تكشّف له عن خيبة مريرة أترعت نفسه جراحات؛ وهو واثق من ان عاطفته ليست وهمّاً او خداعاً، وليست هي بعد نزرة عابرة: لقد كان حبه اول الامر يقيناً، ثم طغى عليه الشك وتفاقم حتى قتله . ان لمياء لم تكن الفتاة التي خلقت له .

منذ ثلاثة اعوام، كانت همّة الاول في الحياة، كانت غايته منها، او هكذا كان يخيل اليه . لقد بدأت جذور الحب تمتد في قلبه وتنمو، منذ ان نجح في شهادة البكالوريا، فحسب ان الحياة شاءت ان تدمغها بطابع واحد؛ ولكن سرعان ما تقلصت هذه الجذور حتى ذابت لتخلق في نفسه يقيناً بان عاطفته إن هي الا حصيلة العشرة الطويلة، تلك التي تتيحها القربى بين ابناء الاعمام . كانت لمياء ابنة عمه، وكانت بهذا اقرب الفتيات اليه، واكثرهن وقوعاً في مدار عينيه، فلا غرو ان يتفتح

للحياة على مرآها، وان تكون اول من يدخل وجوده . كان هذا منذ ثلاثة اعوام؛ ولكن ما أطولها حقبة في حساب شعوره ووجدانه! اي طفل كان، واي انسان هو الآن! وهي، لمياء، ما كانت وما اصبحت؟ انه ليشفق من الجواب ويؤثر ان يظل على صمته . منذ ربح من الزمان طويل وهو يشعر انه خلفها وراءه في اول الطريق . كذلك كان يتمثل حاله معها منذ نجح في تلك الشهادة، كائنان يبدآن السير . ولكن ما اسرع ما تجاوزها في طريق الحياة! وكان يتجه له ان يلتفت خلفه بين آن وآخر، فيوميء لها متلهفاً ان تلحق به، فاذا هي تظل حيث كانت، كأنما سمّرت الى الارض، أو كأن قوة غير بشرية كانت تدفعه في الطريق فينبهها نهياً . وكان يدرك كل يوم، اعمق فأعمق، انه حب يخفق في توسيع افقه، فيزداد إحساسه ابدأً بالاختناق في داخل حدوده، كان يريد لهذا الحب الامتداد والطموح حتى ليعانق إطاره كل شيء في الحياة . ولكنه كان يرى لمياء أعجز من ان تدفع هذا الحب الى أبعد من الظل الذي كان جسمها يخلقه على حافة الطريق .

— يجب ان اغير ضماداتك ..

ويقطع عليه صوت الممرضة سلسلة افكاره، فيعود الى واقعه، ويحس بألم شديد في رأسه، كأن نسيانه كان كافياً لعدم الشعور به . وتساءله الممرضة إن كان يشعر بتحسن . فيوميء بعينه ايجاباً، وهو مدرك انه يخدعها ويخدع نفسه، ثم يسألها عن حال رفيقه في الغرفة المجاورة، وعمّا اذا كان بوسعه ان يراها، فتجيبه بالنفي وتدعوه الى التزام الهدوء التام .

ويغمض عينيه، فتمتلئان بصورة ذلك الحشد الزاخر من رفاقه، من طلاب وعمال، متجهين الى دار تلك المفوضية الاجنبية . كانوا قد وقفوا يهتفون بسقوط وزير الخارجية، ذلك الذي تمثل هذه المفوضية حكومته، من اجل تصريح حملته لجهة عداء صريحة للعرب وتودد مكشوف لأعدائهم، فاذا هم يفاجأون

برجال الشرطة يحيطون بهم ، ثم يقتحمون صفوفهم ، ويعملون هراواتهم فيهم ، فيصاب منهم قليلون ويفر الباقون . وحاول هو ان يقاوم ، فتضافر عليه ثلاثة من رجال الشرطة ، واذا العصي تهوي على مواضع من رأسه وجسمه ؛ ولم يستطع ان يصمد لها طويلاً ، فأغض عينيه . وقبل ان يتهاوى ، طافت بمخيلته طوفة سريعة صورتها هي ، لمياء ، ثم فقد كل احساس . وسع طرقاً خفيفاً على الباب ، فخفق قلبه ، لعلها هي . وظل مسبلاً جفنيه . واقترب وقع الخطى من سريره . وشاء ان يمضي في اغماض عينيه ، ولكنه لم يستطع . ولم تكن هي ، كان شقيقها ، ابن عمه سامي . وبعد ان حياه ، انحنى فوق جبينه فقبّله . وارتعش للمس شفتيه . ان في حضوره نفحة من لمياء . ولكنه سارع فخنق هذه الخاطرة . لم يكن يجب سامي لانه شقيق لمياء . كانت تربطه به رابطة اعق وأقوى ، رابطة تتغلغل في احساسه وتجري في دمه ، رابطة الاحساس القومي الواعي . ومع ذلك ، فان سامي هو الذي ابتعث في نفسه دنيا لمياء من جديد ، ولكن كما تبتعث ذكرى السعادة ذكرى الشقاء . كان سامي عالماً ، وكانت لمياء عالماً غيره .

إنه ليذكر الآن يوم دعاه سامي الى منزلهم ليحدثه في امر تنظيم مظاهرة عامة بمناسبة ذكرى « وعد بلفور » ، وكانت الغاية من هذا اللقاء ان يتعهد كل منها بتنظيم صفوف رفاقه من الطلاب ؛ فقد كانا ملتحقين بمدربتين مختلفتين . وإذا هما يتحاوران دخلت عليهما لمياء ، فأخذت تستمع الى ما يقولان ، حتى إذا ادركت موضوع حديثهما ، انصرفت عنها وعلى شفتيها بسمة ساخرة ، وإذا بلغت الباب التفتت اليها وقالت :

— الا تعتقدان ان هذا سخف تضيعان به وقتكما ؟

فانتفض سامي غضباً ، ونقر اليها وفي عينيه الشر . ولكنه سارع هو فقبض على ذراعه ، ورجاه ان يهدى اعصابه ، وحين غادر منزلهم يومذاك ، لم يدر سبب حر كته : أهى عاطفته تجاه لمياء شاءت ان تحول دون ان يصيبها اخوها باذى ، ام هو شعوره غامض بان لمياء لا تستحق ان يؤبه لها في مثل هذا المضمار ؟ لقد كان يؤذيه دائماً ان يراها لا تكترث بما كانوا يكتثرون به من شؤون البلاد ، وتعبّر عن كرهها للسياسة ، وتتبرم بالاجتماع الذي يتحدث عنها . وكثيراً ما كانت تغادر مجلسها إذا خاض القوم في امر يتعلق بسياسة الحكومة تجاه الشعب ، أو بالنفوذ الاجنبي على البلاد ، كأنها لم تكن تدرك

معنى ذلك ، او لم يكن هذا يعينها في شيء .

وكان ما يُعنى في إيدائه انها فتاة تقبل على العلم ، وتنهل من منابع الثقافة ، وانما بعد ان نجحت في شهادة الفلسفة ، التحقت بكلية الحقوق ، بينما اضطر هو الى وقف دراسته والالتحاق بمتجر والده ليعينه في تصريف شؤونه . وكان يسيراً عليه ان يدرك ان صراعاً عنيفاً كان يقوم في نفسه بين حبسه وحسه القومي . كان يؤلمه ان يرى الفتاة التي يحب عاطلة من هذا الحس . ذلك ما كان يباعد بينه وبينها اكثر فاكثراً ، ويخلسي عاطفته من الحميا التي لا تعيش عاطفة بدونها . كأن في قرارة نفسه امل مبهم بان تكون لمياء شريكة حياته يوماً ؛ ولكن هذا الامل كان يبدو له مستحيل التحقيق ما مرت الايام . . كان موقناً بانه محكوم عليه بان ينذر حياته للكفاح من اجل وطنه وبلاده وامته . وما كان ليفهم ان ترافقه في هذه الطريق روح مغلقة لا تهتز لما يهتز له ولا تستجيب لشواغله وهوومه . على انه كان شديد الاهتمام بالابن لمياء الى شيء من ذلك ، لا يمانه بانه لا خير في روح لا تستيقظ من تلقاء نفسها على مثل هذا الحس . ولكنه خلا يوماً بلمياء في شرفة منزلهم ، ف شعر بان حبسه لها يومذاك كان مستدقاً رهيفاً ؛ وبدلاً من ان يكون في ذلك تبرير لاغفال ما كان يشكوه من لمياء ، كان فيه دعوة ملحة لاثارته . كأن مشاعره وحادثة لا يضعف منها جانب على حساب جانب ، ولا يقوم احساس منها مقام احساس . وإذن ، فانه لم يجد يومذاك بداً من ان ينهبها بطريقة خفية الى هذه الثغرة في حياتها . وما اشد ما آلمه رجوع ذلك في نفسها ! لقد استخف بها الغضب سريعاً ، فاذا هي تنفر منه ، وتبدأ في الادلال بدرجتها من الثقافة ، وتشعره بانه في ذلك دونها . ثم انتهت الى القول بهزؤ :

— لقد تركنا لكم انتم الرجال امر الاهتمام بالبلاد وانقاذها ! وحاول كثيراً ان يلجم ثورته ويضبط اعصابه ، ولكنها امعنت في السخرية وظلّت تدلّ بعلمها عليه ، فلم يتالك نفسه طويلاً ، وإذا هو ينفجر فيؤنبها وينعى عليها موت وجدانها ، ثم ينقلب فيسخر بها وبالفتيات اللواتي يقضين وقتهن كله في قراءة الروايات الغرامية وارتياح دور السينما والاهتمام بشؤون التجميل امام المرايا . . وراها بعد ذلك تغادر الشرفة الى داخل المنزل وتحلفه وحده ، فنهض والارتعاش يهز جسده وخرج من البيت يكاد لا يتبين طريقه . . وادرك ذلك اليوم انه قد فقد

لمياء ، وانه لا خير له في ان يلقاها بعد ، فان سبيله في الحياة تجانب سبيلها ابداً .

— كنت اود ان اجلب لك معي صحف اليوم ، فكلمها قد استنكرت تدخل رجال الشرطة في المظاهرة ، ولا بد ان . . . لقد كاد ينسى حقاً وجود سامي الى قربه ، والتفت اليه يستمع الى حديثه . وظل ينظر الى عيني سامي وشفتيه . ما أشد شبهه بها ؛ هي لمياء ! إنه كاد ينسى قسبات وجهها . سبعة اشهر مضت . بلى ، لقد قصد بيت عمه مرات عديدة ، ولكنه كان ينتهز الفرصة التي تقصد فيها لمياء كليتها لمتفادي من لقاءها . وما كان ذووها يدر كون من امر خصامها شيئاً . ومرة واحدة فقط ، سأله سامي لماذا انقطع عن زيارتهم ، وقال ان لمياء ابدت استغرابها ، فتصنع عدم الاهتمام وتعلل بكثرة الأعمال . سبعة اشهر يشعر الآن في نهايتها ان جراح قلبه قد التأم ، وهو من اجل هذا يرجو . . .

— ارى انك متعب يا عزيزي ، ولن اطيل مكوثي بعد . سأتيك غداً وارجو ان تكون صحتك قد تحسنت .

ونفض ابن عمه يضافحه ، فاحتفظ بيده وهم ان يقول له شيئاً لم يكن يدري ما هو ، ولكن سامي اوما اليه ان يظل صامتاً ، وغادره وهو يتسم له بحنان .

ونام ليلته الاولى تلك وهو يشعر بضيق شديد ، لا يدري أهو من الم في رأسه ، ام من احساس بالفراغ في قلب جفت فيه العروق . . .

★

وأفاق صباح اليوم التالي على الم ثقيل في رأسه ، فكأنه يحمل اعباء مرهمة . كان الوخز يشتد في جميع أنحاء رأسه ؛ وحتى عيناه غشيتها غشاوة رقيقة لم يكن يتبين معها اشكال الاشياء بوضوح . وحاول ان يتحرك في سريره ، فأعجزه ذلك وثقل رأسه وثقل ، ثم ادركته الغيبوبة .

وحين فتح عينيه مرة اخرى ، رأى الطبيب والممرضة إزاءه ، تطل من خلفها عينان جازعتان . عينان صافيتان يعرفها . واسبل جفنيه . انها هي . كان يود لو انها لم تأت . ومع ذلك ، فكان موقناً انها ستأتي . وظل بمغضاً عينيه لحظة طويلة ، وسمع وقع اقدام تبعد ، فخشي ان تكون على وشك الخروج ، ونظر ، فاذا هي منحنية فوقه ، وقد خرج الطبيب والممرضة ، وفي عينيهما سؤال لفة وخوف . وتمتمت باسمه مرتعشاً . وسمعها تقول بعد هنيهة :

— اوصاني الطبيب ألا امكث طويلاً عندك . انت بأشد الحاجة الى الراحة . اسبح لي الآن ان اخرج .

وامسكت بيده ، فشد على يدها ، وسرعان ما انحنبت ولا مست بشفتيها ظاهر كفه ؛ وحين واجهته بعينيها من جديد لم يدر أكانت فيها حقاً دموع ، ام انه فرط الشفافية . وشعر بجمرة يدها تسري في كفه ، ثم سمعها تتعم « سلحني . . . ساحني . . » وانفعلت على عجل ، فخرجت من الغرفة .

★

وحين خرج من المستشفى ، بعد ثلاثة عشر يوماً ، كان في ضميره سؤال واحد : ماذا دهي لمياء ؟ لقد حالت دنيا من غموض ، وعبثاً حاول ان يستكنه سرها او يسبر غورها . ولقد زارته اربع مرات ، وكانت تحمل معها كل مرة باقة من الزهور ، فتضعها في الوعاء ، وتجلس على مقربة من سريره ، وعلى شفتيها بسمه حزينة ، وفي عينيهما صمت مبهم ؛ بل كانت كثيراً ما تصرف بصرها عنه حين تلحظ انه يرنو اليها . كأنها كانت تشعر بالحنين من النظر اليه . وسألها أسئلة كثيرة عن شؤون حياتها ودراساتها ، فاجزت باجوبة بتيورة موجزة ، وكانت ترجوه ألا يكثر من الكلام نزولاً عند رغبة الطبيب . ولكنها انقطعت عن زيارته يوم أعلمه الطبيب ان بوسعه ان يغادر المستشفى متى شاء ، فأثر ان يبقى ثلاثة ايام اخرى يستجمع فيها قواه الضائعة .

وكان اول ما طرحه على سامي ، حين اقبل يزوره في البيت ، سؤال عن لمياء . فاذا بسمه غامضة تجول على شفتي ابن عمه ، وإذا هو يقول ان لمياء بخير وانها سألته عنه غير مرة . ولم يقنع بهذا الكلام ، فألح على سامي يسأله سبب بسمته . ومال عليه ابن عمه يقول :

— انها منذ ثلاثة ايام منهكة بعمل رجنتي ألا أطلعك عليه ! وادرك من هذه العبارة ان بود سامي ان يكشف له ما كانت لمياء تحرص على اخفائه . وعلم ان ابنة عمه انصرفت بعد آخر زيارة له في المستشفى الى تنظيم حملة مع عدد من رفاقها ورفيقاتها لجمع الملابس من البيوت من اجل توزيعها على اللاجئين الفلسطينيين في الجنوب . . .

★

قال له سامي وهو يوميء بيده الى خيمة كبيرة تجتمع عندها حشد من الناس :

— اعتقد انهم هناك .

حصص

ربما مسّحت جرحي ، وجراح الاصدقاء قد أراني ، في غد ، أجري على صدر الحقول
في غدٍ كالحلم ، ملتف المنى انشد الشعر ، لشعبي ، ورفاعي
ربما صفقت الشمس ، غداً ، للسعداء آه ، لو يكحل اجفاني غدي ، آه تطول
ونشيداً ، لفّ ارجاء الدنى لو أغني غدا ، آن التلاقي

ربما فتّحت عيني ، على ذلك النهار قد أراني ، في غد ، ما زلت أحياء ، وأغني
وعلى طفل خلي الصدر ، بكر فوق ارض ، دفنت احزان شعبي ،
في غد ، قد يكشف الحب ، لعيني الستار فوق ارض ، كالهوى ، كالهذب سمحاً ، كالتمني
عن جباه كرفيف الدف سمر ربما عشت ، واخواني ، وحي

حصص نصح فاخوري

بالدموع حقاً ؛ وانطبعت على شفتي لمياء بسمه خزينة ، وقالت
له وهي تحزم الكيس الكبير الذي كان بين يديها :
- ارجوك الا تزيدني خجلاً بنفسي . لقد شعرت باني فتاة
لا قيمة لها حين رأيتك تتألم في سريرك من الجراح التي اصبت بها ..
فجعل يرت على كتفها ويدعوها للصمت ، ولكنها قالت :
- أحمد الله على ان هذه الجراح علمتني الدرس الذي لم
تعلمني اياه الكتب .
وأمسك بذراعها فأمنضها ، فزاعه جمال وجهها وقد سال
عليه العرق ولحقة الغبار وتشعث شعرها فبدا عليها الاجهاد .
وقالت له وهي تشفق من ان ترفع بصرها اليه :
- اتعاهدني على الا تتخلي عني بعد الآن ؟ ألا تتركني
وحدي في الطريق ؟
- لم اتركك يا لمياء ، وانما انت التي تخلقت .. أميا الآن
فسنسير معاً ، جنباً الى جنب .
وصمت هنيهة ثم ردد ، وهو ينظر الى البعيد ، كأنما يستشرف
وطناً حبيباً يعي حدوده الكبرى :
- نعم .. يجب ان نسير معاً ، جنباً الى جنب .
وتأبط ذراعها ومضى بها يبحث عن سامي .

ومضيا يهبطان المنحدر بسرعة . وشعر هو ببعض التعب ،
ولكنه لم يشأ ان يشكو امره الى سامي . فقد نصحه ابن عمه
ان يعدل عن هذا السفر خشيةً على جروح رأسه التي لم يمض
على التئامها الا ايام قليلة ، ولكنه اصر ، فكست شفتي سامي
بسمه لا تخلو من خبث ، واستقلا السيارة في الصباح الباكر .
واقتربا من الحيمة الصاخبة ، وسمعا اصوات النساء تطلب
نصيبتها من الملابس . ورأى بعض الشبان من رفاق ابن عمه
ينظرون اليها قادمين نحوهم ، فيصبح احدهم مرحباً بهما .
ويبحث هو بين هذا الحشد الزاخر حتى رآها ، هي .
كانت منحنية على كيس كبير تخرج منه بعض الملابس ،
وتسارها الى امرأة عجوز كانت واقفة الى قربها .
ودنا منها دون ان ينبس بحرف ؛ ورآها تلتفت اليه التفاتة
سريعة ، ثم تعود الى عملها كأنها لم تعرفه ، وما تلبث ان تلتفت
مرة اخرى ، على مهل ، والاحمرار يصبغ وجنتها ، ثم تتمم :
- أهذا انت ؟ .. كدت لا اعرفك بهذه القبعة !
قال لها وهو يبتسم : - وانا ايضاً .. كدت لا اعرفك ..
بين هؤلاء المساكين !

فرأى وجهها يزداد احمراراً ، ورأى عينها ترنوان اليه ،
وفيها ذلك البريق العذب الذي كان يتدوّقه بعينه كما يتدوّق
ظاميء بشفتيه جرعة ماء مثلوج . ولكن هاتين العينين امتلأتا

سهيل ادريس